سلسلة

اللهم قوِّ إيماني

[٨]

عَوْدٌ حَمِيد

تأليف: د. على راشد

ريشة: أسامه أحمد نجيب

قام عمّ غريب الجندى من نومه ذات صباحٍ وهُو مُنشرحُ الصّدر سعيد - علَى غير عادته - وعلى وجهه ابتسامةُ رضًا وقَال بصوْتٍ مَسموعٍ:

- اللّهمّ اجْعلهُ خيرًا..

واستعجبتْ زوجتُهُ «فتينةُ» وتُلقّبُ بـ «أمّ صلاح» علَى زوجها هذا الانشراحَ وتلكَ الابتسامة وقالتْ فى فضُولٍ:

- أراك على غير عادتك يا أبا صلاحٍ مُبتسمًا، مُنشرحًا، سعيدًا.. خيرًا، اللّهمّ اجْعلهُ خيرًا؟

فردّ الزوْجُ بنفس الابتسامةِ والانْشراح علَى زَوجته:

- خيرٌ.. خيرٌ يا أمّ صلاحٍ، فلقدْ رأيْتُ فِى مَنامى هذه اللّيلَةَ عجبًا..

- عجبًا!! استرْ يا رب، قُول لى وبسُرْعةٍ يا رجُلُ ماذا رأيْتَ؟ أخيرٌ يأتينا أمْ شرٌّ يُؤذينا؟

- بلْ هُو خيرٌ إنْ شاءَ اللّهُ يا أمّ صلاحٍ، لقدْ رأيتُ فيما يرَى النّائمُ أنّنى أسيرُ فى مَيدانٍ واسعٍ ليسَ لهُ مثيلٌ فى بلدتنا، وأظنّ أنّهُ أحدُ ميادين مَدينةِ القاهرة.

- القاهرةُ!! كيفَ وأنتَ لم تذهبْ إليها سوَى مرةٍ واحدةٍ فى حياتك؟

- لا أدرى، ولكنْ هذا ما أظنُّهُ، وكانَ يسيرُ فِى هذا الميدَانِ بعضُ الأجانب.

- تَقصدُ خَواجَات مِنْ بلادْ برَّه؟

- نَعَمْ..

- وكيفَ عَرفتَ ذَلِكَ؟

- مِنْ مـلابِسـهِمْ وقـبَّعـاتِهِمْ، وَرأيتُ كَـذلِكَ بعضَ المصـرِيِّينَ يَقـفُـونَ عَلَى الرَّصـيفِ يُشَاهِدونَ هَؤلاءِ الأجانِبِ يحيُّونَهُمْ وَيُصفِّقُونَ لهُم.

- يُصفِّقُون لَهُمْ!! لِمَ؟

- هَذَا مَـا سَألتُـهُ بِالفِعْلِ لِوَاحِدٍ مِن هَؤلاءِ الَّذِينَ يصـفِّـقُـونَ، فكَانَ رَدُّهُ نَحنُ نصـفِّقُ لِهذَا المصرِيِّ الذِي يَسِيرُ مَعَ هَؤلاءِ الأجَانِبِ.

وتعجبْتُ لهذا الكلام فقلْتُ لهُ: مصريٌّ: هؤلاء جميعًا أجانبُ ويلبسونَ ملابسَ الأجانب. فقال لى: إلا واحدًا منهمْ، وهو الذى يسيرُ فى منتصفهمْ.. ألا تعرفهُ يا أبا صلاح؟ فقلتُ: كلا لا أعرفه، فقال ضاحكًا: هذا هُوَ ابنُكَ صلاحُ يا أبا صلاح..

فنظرتُ بدقة وأنا لا أصدقُ الكلام فإذا بى أجدهُ بالفعل ولدنا صلاحُ يلبسُ ملابسَ الأجانب ويسيرُ معهمْ، والناسُ يصفقونَ لهمْ، ففعلْتُ مثلهمْ وأنا فى غاية السَّعادة وأخذتُ أُصفقُ لابْنى بشدةٍ، واستيقظْتُ منْ نومى وأنا على هذه الحال. فبمَ تفسِّرينَ هذه الرؤْيا يا أمَّ صلاح؟

فابْتسمت الزوجةُ فى سعادةٍ من هذه الرؤْيا، ومنْ أنَّ زوجها يثقُ فى تفسيراتها للأحلام وقالَتْ:

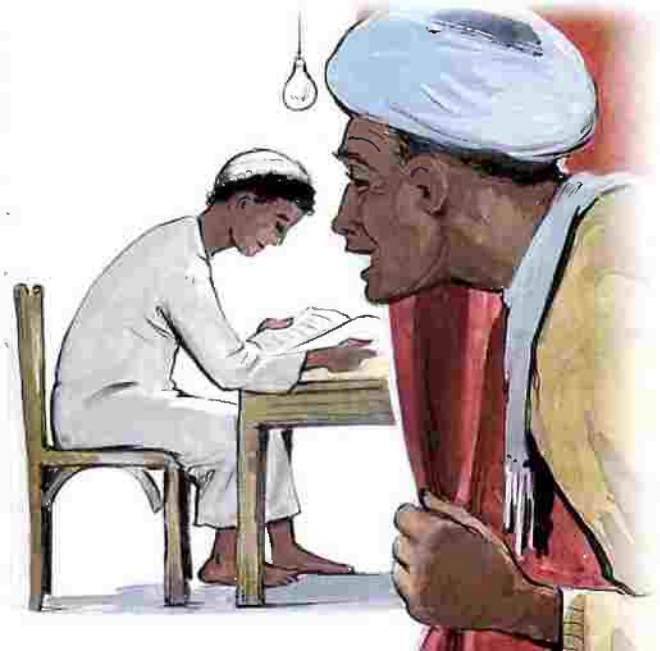

- خيرٌ يا أبا صلاح خيرٌ، هذه بشْرى أنَّ ولدنا صلاح سينجحُ هذا العامَ فى امتحان الثانويَّة العامَّة، وسيحصلُ بإذْن الله على مجموعٍ كبيرٍ.

فنهضَ الرَّجلُ منْ سريره فرحًا قائلاً:

- منْ فمك لباب السَّماء يا أمَّ صلاح.

ومرَّ الرجلُ بحجرةِ ولده صلاح فوجدهُ يستذكرُ دروسهُ، فقامَ الابْنُ وسلَّم على أبيه

وقبل يده فدعا الأبُ له بالتوفيق والنجاح. ولكنَّهُ لمْ يذكُرْ له رؤياهُ حتَّى لا يشغلَهُ عنْ الاستذكار.

وخرج عمّ غريبُ ليسير فى طرقات بلْدته (برديس) التَّابعة لمدينة جرْجا فى صعيد مصر، متجهًا إلى دُكَّانه المتواضع الذى يبيعُ فيه موادَّ غذائيةً وأدوات منزليَّةً، فهذا الدُّكانُ هُوَ مصدرُ رزقه الرئيسيُّ هُوَ وزوجته وأولاده الأربعة - أكبرُهمْ صلاحٌ - وهناك ستَّةُ قراريط زراعيةٍ - رُبعُ فدَّان - ورثها عمّ غريب عنْ والده، يستثمرُها فى زراعة بعْض الخضروات والفاكهة الَّتى تُساعدُ فى تلبية بعْض احْتياجات أهْل بيته.

ونجحَ صَلاح غريب فى الثانويَّة العامَّة بتفوُّق كبير، واختارَ كُليةَ الزراعة جامعة أَسيوط لأنَّهُ يعشَقُ الزراعةَ والعلومَ الزراعيةَ - رغمَ أنَّ مجموعهُ يؤهِّلُهُ لدخول أية كلية يُريدُها.. وتفوَّقَ فى دراسته، وكانَ دائمًا منْ أوائل النَّاجحينَ فى دفعته، وتراوحتْ تقديراتُه مَا بينَ الجيِّد جداً والامتياز.

وبعدَ تخرجه نصحَهُ أحدُ الأساتذة بالعمل كباحث فى مركز البُحوث الزراعيَّة التَّابع لجامعة القاهرة، حيثُ سيكتسبُ الخبرةَ فى مجالات الهندسة الوراثيَّة والمحاصيل المهجَّنة، وذلكَ علَى أيْدى كبار الأساتذة فى هذا التَّخصُّص، علاوةً على أنَّ هذا المركز يُتيحُ فرصَ البعثات الدراسيَّة للدول المتقدِّمة للعاملينَ فيه.

وبالفعْل ودَّعَ صَلاحٌ أهلَهُ وتوجَّهَ منْ بلدته «برديس» إلَى القاهرة العاصمة الكُبرى.

ليتسلم عمله الجديد. وأوصاه والده قبل السفر بالتمسك بدينه وخاصة المواظبة على أداء الصلاة فى مواقيتها. والالتزام بالأخلاق الكريمة فى معاملاته.

وبالفعل تسلم الفتى عمله الجديد فى مركز البحوث الزراعية تحت رئاسة الأستاذ الدكتور محمد شكرى غانم، وهو من أكبر أساتذة الهندسة الوراثية والمحاصيل الزراعية المهجنة. ليس على مستوى مصر فقط، بل على مستوى الوطن العربى.

وسعد صلاح غريب أيما سعادة وهو يتعلم من أستاذه الكبير الذى تعرف عليه سابقا من خلال كتبه القيمة، ومن مشاهدة بعض وسائل الإعلام - تليفزيون وإذاعة وصحافة - وها هو ذا الأستاذ القدير معه يوميا، يتحدث إليه ويتعلم منه، ويشجعه ويشمله برعايته وعطفه الأبوى.

وكما سعد الفتى بأستاذه، سعد الأستاذ بتلميذه صلاح، وأعجب بهذا الفتى القادم من جنوب صعيد مصر، أعجب باجتهاده وذكائه وأسلوب تفكيره وأدبه وخلقه، وفى كثير من المواقف كان يضرب به المثل فى العلم والخلق والاستقامة.

ومع تداخل علاقة صلاح بأستاذه الدكتور شكرى اقترب منه كثيرا، ليس فى مركز البحوث الزراعية فقط، وإنما فى بيته أيضا، فكثيرا ما كان يستدعيه إلى بيته الفاخر الذى يقع على النيل مباشرة فى حى الزمالك الراقى بمدينة القاهرة، ليستكملا معا عملا معينا، أو بحثا، أو دراسة أجنبية تتضمن أفكارا جديدة أو معلومات حديثة فى مجال البحوث الزراعية.

ورغم أنّ الفتى أحبّ أستاذهُ حبًا جمًا، وجعلهُ المثلَ الأعلى لهُ، وتمنّى أنْ يكونَ يومًا من الأيام مثلهُ؛ إلا أنّهُ اكتشف شيئًا فى أستاذه ضايقهُ كثيرًا، وقلّل قيمتهُ وهيبتهُ فى نظره. فأستاذهُ الكبيرُ ومثلهُ الأعلى غيرُ ملتزمٍ نهائيًا بأيةِ واجباتٍ دينيةٍ، فهُو لا يُصلّى بتاتًا، وحتّى صلاة الجمعة لا يؤديها. كما اكتشف الفتى أنّ أستاذهُ لمْ يؤدّ فريضةَ الحجّ، ولم يقمْ فى حياته بأداء العُمرة، وهُو الذى يُسافرُ سنويًا إلى العديد منْ بلادِ العالمِ شرقًا

وغربًا وشمالا وجنوبا. وعلاوة على كل ذلك فإنه لاحظ على أستاذه أنه أحيانا يشرب بعض كؤوس الخمر. والأمر الذى استنكره صلاح بشدة أن أستاذه لا يصوم شهر رمضان وإن كان فى العمل يتظاهر بالصيام.

وصدم صلاح صدمة شديدة فى أستاذه الكبير ومثله الأعلى. وتساءل بينه وبين نفسه: ماذا ينقص هذا الأستاذ حتى يبتعد عن ربه كل هذا البعد!! لقد أعطاه الله العلم الغزير والمال الوفير والصحة والعافية، والمركز الاجتماعى المرموق، والرجولة الفتية والوسامة اللافتة، والزوجة الجميلة والأبناء المتميزين والمتفوقين الذين يتعلمون فى أحسن مستويات التعليم الأجنبى الخاص فى مصر. فماذا ينقصه؟ واكتشف صلاح الإجابة المحزنة على هذا التساؤل وهى: ينقصه الإيمان بالله، ينقصه التمسك بدينه، وردد صلاح - الشاب المؤمن الذى يؤدى واجبات دينه بدرجة عالية - بينه وبين نفسه هذه الأبيات التى حفظها من قصيدة الشاعر الباكستانى المؤمن محمد إقبال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان	ولا دنيا لمن لا يحيى دينا
ومن رغب الحياة بغير دين	فقد جعل الفناء له قرينا

ولم يجرؤ صلاح بأى حال من الأحوال على مكاشفة أستاذه بالحقيقة، وأنه مع كل ما يمتلك هالك لا محالة، فعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة» (رواه أحمد ومسلم). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص

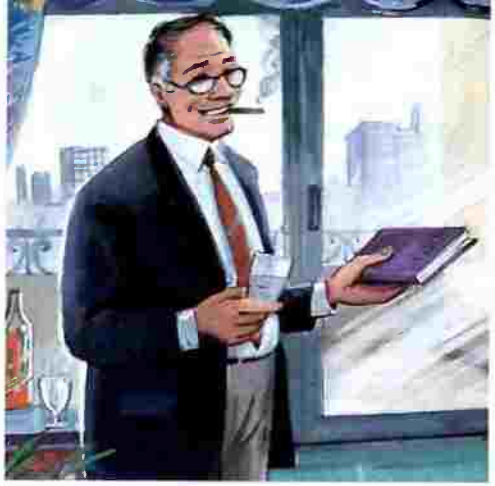

عن النبىّ صلى اللهُ عليْه وسلّم أنّهُ ذكر الصلاة يومًا فقال: «منْ حافظ عليْها كانتْ لهُ نورًا وبرهانًا ونجاةً يوْم القيامة، ومنْ لمْ يحافظْ عليْها لمْ تكنْ لهُ نورًا ولا برْهانًا ولا نجاةً، وكان يوْم القيامة مع قارون وفرعوْن وهامان وأُبىّ بْن خلف» (رواهُ أحمدُ والطبرانى).

واحْتار الفتى، ولمْ يدْر ماذا يفعلُ مع هذا الأُستاذ الكبير الّذى يُسمّى على اسْم أعظم خلْق الله - محمد صلّى اللّهُ عليْه وسلّم - وهُو بعيدٌ كلّ البُعد عمّا جاء به هذا النّبىُّ الكريمُ عليه الصّلاةُ والسّلامُ. لقد ابْتلت الأقْدارُ أُستاذهُ بالنّعم، وقدْ يظنُّ الكثيرُ أنّ الابتلاء لا يكونُ إلا بمكْرُوه من الفقْر أو الأمراض أو فقد الأعزّاء أو نحو ذلك. مع أنّ الحقيقة أنّ الابتلاء يكونُ أيضًا بالنّعم سواءً بالمال أمْ بالعلم أمْ بالمناصب العُليا والمراكز الاجتماعيّة المرموقة، فكلُّ إنسان لهُ امْتحانٌ يناسبُهُ، فالبعْضُ يناسبُهُ الامتحانُ بالشّدائد، والبعضُ الآخر يُناسبُهُ الامتحانُ بالنّعم وتحْقيق الأماني. وهذا الامتحانُ هو الأخْطرُ، حيْثُ تُنسيه هذه النعمُ التّفْكير فى الله، وتشعرُهُ بالغرور، وأنّه ليس فى حاجة إلى أحد، حتّى إلى ربّه الّذى خلقهُ ورزقهُ وأعطاهُ كلّ هذه النعم.

ولمْ يستطعْ صلاحٌ أنْ يفعلَ شيئًا لأستاذهِ الكبيرِ، فهلْ يجرؤُ أنْ ينصحَهُ؟ لا .. لا يستطيعُ لا يستطيعُ أنْ يقتربَ منْ هذهِ المنطقةِ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ.

ومرّتِ الأيامُ والأستاذُ لا يدرى ماذا يدورُ فى عقلِ الفتى. وفى أحدِ الأيامِ بشّرهُ أستاذُهُ بمنحةٍ دراسيةٍ خُصّصتْ لهُ للحصولِ على درجتَى الماجستيرِ والدكتوراه فى إحدى الجامعاتِ المعروفةِ بالولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيةِ، فسعدَ صلاح غريب بذلكَ أيّما سعادةٍ، وأنهى الإجراءاتِ استعدادًا للسفرِ، وذهبَ إلى أهلهِ فى جنوبِ الصعيدِ لوداعِهمْ، ووصّاهُ والدهُ بالتمسّكِ بدينهِ، والتحلّى بخلقِ المؤمنِ فى جميعِ معاملاتهِ، فوعدهُ ابنهُ بالالتزامِ الدينىّ فى الغربةِ، وإنّهُ سيداومُ على كتابةِ الرسائلِ لهمْ، وكانَ وداعًا مثيرًا للدموعِ بينَ صلاحٍ وأبيهِ وأمّهِ وإخوتهِ وجيرانهِ، وممزوجًا بالدعواتِ لهُ أنْ يحفظَهُ الرحمنُ عزّ وجلَّ فى أيّامِ غربتهِ.

ولما عاد صلاحٌ للقاهرة واستعدَّ للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فكّر مليًا فى ليلة سفره فى موضوع أستاذه. وهنا قرر أن يكتب رسالة بدون اسم إلى أستاذه وكأنه أحدُ تلامذته - وهُمْ كثيرٌ - يُبينُ فيها خطورة عدم التزامه الدينى. وأنْ تكتب على الآلة الكاتبة حتّى لا يعرف خطّه. وأنْ تتضمَّن بعض المعلومات غير الصَّحيحة التى تُبعدُ عن تفكير الأستاذ أنَّ تلميذهُ صلاحٌ هو مُرسلها. ويرسلها بالبريد إلى مركز البحوث الزراعية. فلا تصله إلا بعد أنْ يكون قدْ غادر أرض الوطن. وبذلك يُحقق هدفه دون أنْ يكون هُناك حرجٌ.

وبالفعل كتب صلاحٌ رسالتهُ التَّالية إلى أستاذه:

أُستاذى القديرُ الأُستاذ الدكتورُ مُحمد شُكْرى غانم - حفظهُ اللهُ

السّلامُ عليكمْ ورحْمةُ الله وبركاتهُ

أنا أحدُ تلامذتك الذين نهلوا الكثير منْ علمك الغزير واستفادُوا منْ إرشاداتك وتوجيهاتك العظيمة. ورغم أنَّنى لمْ أرك مُنذُ حوالىْ ثلاث سنوات. إلا أنَّنى أتذكرُك فى كُلّ يوم. وأدعُو الله عزَّ وجلَّ لك بكلّ خير. وجزاك اللهُ خيرًا فيما فعلتهُ لى ولكلّ زملائى..

أُستاذى الجليلُ..

اسمحْ لى أنْ أكتب لك هذه الرّسالة دُون أنْ تعرف اسمى. فأنا أخجلُ أنْ يُقال أنَّ تلميذًا من تلاميذك يقدمُ لك النَّصيحة، وإنْ كان هذا ليس فيه شىءٌ من الحرج؛ لأنَّ

«الدين النصيحة» كما قالها رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. وعندما نبهت امرأة الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أمر من أمور الدين فقال قولته الشهيرة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر» وادخل مباشرة فى الموضوع. فقد لاحظت عندما كنت أتتلمذ على يديك منذ زمن طويل أن الله تبارك وتعالى أعطاك من نعمه الكثير: العلم والصحة والمال والمكانة الاجتماعية المرموقة، والرجولة والزوجة الحنون والأولاد الذين يملأون عليك الدنيا سعادة، زادك الله من نعمائه. ولكننى لاحظت أيضا - عفوا أستاذى لا تؤاخذنى - أنك لا تعطى الله حقه من العبادة، ولا تتمسك بأصول دينك، وتترك الصلاة التى هى عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، هكذا علمنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. كما علمنا أن «بين الرجل والكفر ترك الصلاة» (رواه أحمد ومسلم).

هل تحب أستاذى أن تلتصق بك هذه الصفة اللعينة، صفة الكفر والعياذ بالله؟.

أستاذى الفاضل..

أين أنت من الموت؟ أتظن أنه بعيد عنك؟ والله إنه أقرب إليك من نفسك. فكيف ستستقبله؟ وكيف ستواجه ملك الموت وهو ينتزع روحك من جسدك؟ وماذا ستقول للملكين عند حساب القبر؟ وماذا تفعل عندما يكون هذا القبر حفرة من حفر النار؟ وماذا ستقول لرب العزة والجلال يوم القيامة عند الميزان؟ سيقول لك الله:

لقدْ أعطيتُك العلم الغزير والمال الوفير والعقل المفكر. كما أعطيتُك العقل المفكرَ والصّحة الموفورة وحُسن الهيئة، وأعطيتُك الزّوجة والأولاد. فماذا قدّمت لى جزاءَ على كلّ هذه النّعم؟ كفرت بنعمتى ولمْ تُقم الصّلاة لذكرى. ولمْ تحجّ إلى بيْتى وقدْ أمرتُك بذلك وكنت تستطيعُ فلم تُبال، وبدلا منْ أنْ تذهب إلى بيتى العتيق، ذهبْت إلى بلادٍ أُخرى تُشبعُ فيها غرائزك وتسيرُ فيها على هواك.

أُستاذى الكريمُ..

أما سمعت قول المولى القدير فى كتابه العزيز:

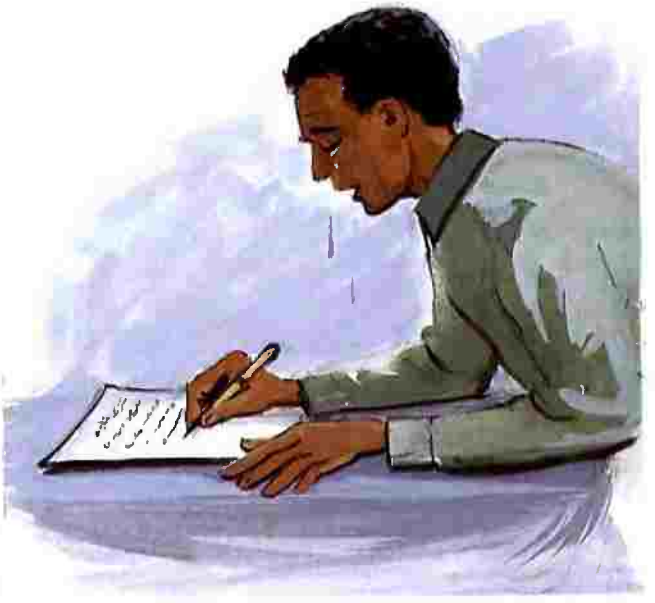

﴿... عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ (طه) صدق اللهُ العظيم.

هلْ تُريدُ أنْ تعيش عيشةً ضنْكا وتُحشرْ يوْمَ القيامة أعْمَى؟ أمْ تُريدُ أنْ تكون من عباد الرّحمن المخلصين: ﴿وعبادُ الرّحْمن الّذين يمشُون

على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما (٦٥)﴾ (الفرقان).

تذكرْ يا أستاذى لحظة الموت، تذكرْ دخول القبر بمفردك وحسابه وعذابه، تذكرْ يوم القيامة ﴿يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧)﴾ (عبس)، تذكرْ هذا اليوم ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون (٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم (٨٩)﴾ (الشعراء). تذكرْ لحظة الحساب الرهيبة: ﴿فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية (٩) وما أدراك ماهيه (١٠) نار حامية (١١)﴾ (القارعة).

أستاذى الفاضل..

أدعو الله أن ينير بصيرتك، ويقوى إيمانك، ويلهمك التقوى وحسن الختام، لتعود إلى ربك عوداً حميداً لتفوز بجنة الخلد، وذلك هو الفوز العظيم..

تلميذكم المخلص

وسافر صلاح غريب إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أرسل رسالته إلى أستاذه، واستقبله فى مطار إحدى الولايات زميل من نفس تخصصه - مصرى الجنسية - كان قد علم بقدومه، وقام هذا الزميل بكل ما يلزم نحو استقرار زميله صلاح، وأوجد له السكن الملائم وعرفه بكل أساليب ووسائل معيشته الجديدة.

وانشغل صلاحٌ بحياته الجديدة، فهو ما بين معهد تعليم اللغة الإنجليزية للأجانب، وبين كليته ومعارفه الجدد، نسى شيئًا فشيئًا حياته فى مصر، وقلت خطاباته لأهله، وتكالبت عليه ظروف تلك الحياة، فانفك تمسكه بأصول دينه إلى حد كبير، فلم يعد يصلى كل فرض فى حينه، بل أخذ يجمع الصلوات كلها ويؤديها فى آخر اليوم، وفى الأيام

التى كان يأتى مسكنه متعبًا لم يكن يستطيع أن يؤديها بالمرة. أما صلاة الجمعة فكان حريصًا عليها فى البداية رغم أنه يقطع مسافة حوالى مائتى كيلو متر ليصل إلى المسجد الذى تؤدى فيه هذه الصلاة، ومع مرور الوقت تكاسل فى هذا الفرض الدينى الأساسى، فكان يؤديها كل عدة شهور!!

وتعرف الفتى الأسمر بزميلة له فى نفس تخصصه الدراسى تدعى: «سوزى مارتن» أمريكية الجنسية، فتاة ذكية، جميلة الوجه بشكل لافت للنظر، شقراء ورشيقة القوام، تتحلى بروح مرحة، من أسرة ثرية ذات نفوذ اجتماعى واقتصادى، وعلاوة على ذلك فهى مجتهدة فى دراستها. وأحب صلاحٌ زميلته سوزى، وأحبت الفتاة هذا الشاب المصرى

الأسمر الذكى حلو القسمات، مكتمل الرجولة، وساعدته بكل إمكانياتها وإمكانيات أسرتها على أن يستقر فى حياته، وعلى أن تسعده وتنسيه غربته وبلده وأهله. وبهر صلاح بحياته الجديدة مع سوزى، وانطلقا معًا يعيشان أروع أيام حياتهما. دراسة ناجحة، وحب جارف، وحياة ممتعة تتزين بالرفاهية. وندرت حياته من التزاماته الدينية، ولم يعد يؤدى صلواته إلا نادرًا، وابتعد الفتى عن ربه ابتعادًا كبيرًا، ولم يعد يرسل خطابات إلى أهله، وتبدلت حياته تمامًا.

وتزوج صلاح من فتاته سوزى لتستقيم الأمور، ولا يقع فى العلاقات المحرمة معها، ومرت الأيام والشهور والسنون، وانتهى صلاح وسوزى من دراستهما وحصلا على درجتى الماجستير والدكتوراه فى تخصص «الهندسة الوراثية للنباتات والمحاصيل الزراعية المهجنة» بتقديرات عالية. ورزقهما الله بطفلة جميلة سمتها أمها «مارى». واقنعت سوزى زوجها صلاح بأن المستقبل لهما فى بلدها بعد أن حصل هو على الجنسية الأمريكية. وكلف محاميًا بالتفاهم مع الملحقية الثقافية المصرية فى أمريكا ليدفع كل المصروفات التى تم صرفها عليه من قبل الحكومة المصرية، وتم ذلك بالفعل. والتحق بوظيفة أستاذ مساعد فى مركز بحوث زراعية، وكذلك زوجته، وتحققت أحلام كثيرة للدكتور صلاح غريب، وتغيرت شخصيته تمامًا عما كان عليه فى بلده، فهو فى أيام العمل الأسبوعية الخمسة - من الإثنين حتى الجمعة - متفرغ تمامًا لعمله وأبحاثه، وحضور الندوات

والمؤتمرات، والمحاضرات العامة، واللقاءات والظهور فى وسائل الإعلام المختلفة وخاصة قنوات التليفزيون المحلية والفضائية، أمّا فى يومى الإجازة الأسبوعية (الويك إند) - السبت والأحد - فهو وأسرته فى رحلات قصيرة، وقضاء السهرات والحفلات الراقصة، حيث يقضى وقتا ليس بقصير فى تلك السهرات يراقص الفاتنات الجميلات - وليس فى ذلك أى حرج - فزوجته الجميلة سوزى تراقص الرجال على اختلافهم، كما أنه تمادى فى شرب الخمر وأصبح مدمنا لها ولا يستطيع الإقلاع عنها، كما داوم على تدخين «البايب»، فأصبح سمة من سماته أن يدخنه سواء فى مركز أبحاثه أم فى بيته أم فى حفلاته وسهراته.

وزادت ثروة صلاح غريب بمساعدة زوجته وعائلتها بإشراكه في بعض العمليات التجارية (البيزنس) حتى صار مليونيرا يمتلك ملايين الدولارات بخلاف بعض الأصول العقارية، وانتقل ليعيش في قصر فاخر يليق به وبأسرته وبعائلة زوجته. وبدأت ابنته الجميلة (ماري) في مرحلة تعليمها الابتدائي.

وتمزقت آخر خيوط كانت تربط صلاح بعقيدته الدينية. فلا صلاة، ولا زكاة، ولا صيام لشهر رمضان المعظم، ولا حج لبيت الله الحرام. وانطبق عليه كلمات الله عز وجل: ﴿... نسوا الله فأنساهم أنفسهم ... ﴿١٩﴾﴾ (الحشر)، كما انقطعت صلته بأهله في مصر تماما، فلا خطابات ولا اتصالات هاتفية، لأنه غير سكنه وهواتفه، وارتاح هو لذلك. لأنه عندما كانت تخطر في ذهنه مقارنة بين بلدته ومسقط رأسه - برديس - وعيشته الأولى مع أبيه وأمه وإخوته، ومعيشته الآن في هذا القصر المنيف ورفاهيته الزائدة. كان يصمم على قطع كل صلة له بهذا الماضي المخزي - في نظره - وإن كانت نفسه تحدثه بين الحين والآخر بحنينه نحو والديه وإخوته، وأنه يشتاق لسماع أخبارهم أحيانا.

وذات ليلة رأى في المنام والده وهو يرتدي جلبابا ناصع البياض، وأنه في أحسن صحة وعافية وكأنه عاد إلى شبابه، ولكنه ينظر إلى ولده صلاح بنظرات كلها عتاب ولوم شديدان، وحاول أن يتحدث إليه عدة مرات ولكنه لم يجد صدى لهذه المحاولات. واختفى الأب من أمام ابنه، وقام صلاح من نومه حزينا، مجروح الفؤاد، يشعر كأن تعاسة الدنيا جميعا قد حطت عليه.

وَفِى نَفْسِ صَبَاحِ ذَاتِ اليوْمِ تحدثَ إليْهِ زَمِيلُهُ القَدِيمُ الَّذى اسْتَقبلَهُ فِى المطارِ يوْمَ أنْ وصلَ إلى الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّةِ لأوَّلِ مرَّةٍ، وأخبرَهُ أنَّ له برقيَّةً وصلتْ إليهِ منْ مِصرَ، فذهبَ إليْهِ وأخذَ منهُ البرقيَّةَ وقرأها فإذا بِهَا منْ أخيهِ الأصغرِ «صابر» يخبرُهُ برحيلِ والدهِ عَنِ الدُّنيا، وقُربِ رَحيلِ والدتِهِ. فعرفَ تفسيرَ الحلمِ الذى رآهُ فى ليلتهِ السَّابقةِ.

وهزَّتِ البرقيَّةُ ومَا تحملُهُ مِنْ أخبارٍ كيانَ صلاح غريبٍ، وتذكَّرَ أيامَهُ الأولى، وحنانَ أُمِّهِ، ورعايةَ أبيهِ، ومؤانسةَ إخوتِهِ، فبكى بُكاءً مُرًا. وشعرَ بوخزِ ضميرِهِ على ما فعلَ وعلى جُحودِهِ لأبويْهِ وإخوتِهِ، وإهمالِهِ لهُمْ، وَهُمُ الَّذينَ وقفُوا بجانبِهِ حتَّى صارَ ما صارَ إليْهِ.

واستيقظت فيه نخوة ظن أنها ماتت فيه ودفنت. فعزم الأمر على زيارة بلده الحبيب مصر الذى غاب عنه أكثر من عشرة أعوام. وعندما علمت زوجته سوزى بعزمه لظروف وفاة والده وافقت على سفره، بل ألحت على أن ترافقه وابنتهما «مارى» للتعرف على أعمامها وعماتها وأهل أبيها، فوافق على هذا الطلب.

وسافرت الأسرة الصغيرة إلى مصر، وعندما وصلت طائرتهم إلى مطار القاهرة الدولى، ووضع صلاح أقدامه على أرض مصر: انحنى وسجد على أرض المطار وقبلها وهو يبكى وكأنه يعتذر.

وعندما اخترقت سيارة الأجرة التى استقلها صلاح غريب وأسرته شوارع القاهرة فى طريقهم إلى ميدان رمسيس ليستقلوا قطار السكة الحديد إلى بلدته، لاحظ كل هذا التغير الكبير الذى حدث فى شوارع وميادين القاهرة، وكانت زوجته وابنتهما فى سرور وسعادة من هذه الرحلة إلى أرض الحضارات، فتلفتت سوزى حولها قائلة «فانتاستك» أى رائع وكذلك «مارى».

واستقلت الأسرة القطار ووصلت إلى بلدة «برديس» وكان لقاء حارًا بين المهاجر وأهله وخاصة أمه التى كانت على فراش المرض، فأمر بعلاجها فى أفضل مستشفى متاح، وزار قبر أبيه وبكى عنده كثيرًا، وأخذ يكلمه ويعتذر إليه ويطلب منه السماح. وعرف من أخيه «صابر» أن أستاذه فى مركز البحوث الزراعية الدكتور محمد شكرى غانم قد توفى منذ حوالى ثلاث سنوات، فتأثر صلاح بذلك أشد التأثير، واستأذن أسرته فى أن يذهب إلى القاهرة لتقديم واجب العزاء - وإن كان متأخرًا - لزوجة الدكتور شكرى وأنجاله. وبالفعل سافر صلاح بمفرده إلى القاهرة، وتوجه فورًا إلى بيته الفاخر الذى يقع على النيل فى حى الزمالك الراقى، ولم تخنه ذاكرته فقد ذهب إلى هذا البيت فى شبابه مرارًا وتكرارًا. واستأذن فى الدخول فلم تعرفه أرملة الدكتور شكرى فى أول الأمر، وعندما عرف نفسه لها تذكرته، وأثنت عليه، وأوضحت أن زوجها كان دائمًا يذكره بخير، ولمح الدكتور صلاح على جدار الصالون الذى يجلس فيه مع أرملة أستاذه قطعة قماش داخل إطار أنيق، وكتب أسفل القطعة: «جزء من كسوة الكعبة المشرفة» وفهمت الأرملة ما يدور فى ذهن الرجل فقالت وابتسامة رقيقة على وجهها:

- لقد تغير الدكتور شكرى - رحمه الله - تغيرًا جذريًا بمجرد سفرك البعثة، فترك الكثير من مشاغل الدنيا ولهوها ومسراتها وتاب إلى ربه توبة نصوحًا، وتبعناه أنا وأولادنا

فى هذه التوبة والحمدُ لله، والتفت إلى أمور دينه فأصبح يُصلى الصلوات الخمسَ فى حينها فى المسجد القريب منْ بيتنا. وواظب على صيام شهر رمضان منْ كل عام، وزاد فى ذلك صيام يومين منْ كل أسبوع - الإثنين والخميس - وحجَّ بيتَ الله - ونحنُ معهُ - ثلاث مرات. وقام بأداء العُمرة العديدَ من المرات. وواظبَ على تأدية زكاته والإكثار منْ صدقاته.

وقال صلاحٌ فى فضول:

- سيدتى الفاضلة .. ألمْ تتعرفى على سر هذا التغيُّر الرائع؟

قالت السيدةُ بنفس الابتسامة الرقيقة على وجهها:

- أظنُّ أنَّ سبب هذا التغيُّر كانَ رسالةً وصلت الدكتور شُكْرى - رحمهُ اللهُ - منْ أحدِ تلاميذه، كانتْ تتضمنْ نصائح دينيَّةً قيِّمةً غيَّرتْ منْ أُسلوب حياته. ولقدْ وجدتُ هذه الرسالة بعد رحيله بين أوراقه العديدة - وسارتِ الأمورُ على ما يُرامْ حتى حانتْ لحظة الموت، حيثُ كانَ - رحمهُ اللهُ - يُصلى الفجْرَ فى المسْجد، وفاجأتْه أزمةٌ قلبيَّةٌ شديدةٌ، انتقل بسببها إلى الرفيق الأعلى، ولا أنس ما حييتُ عندما نظرتُ إليه آخر مرة قبل أنْ يُوضعَ فى الكفن تلكَ الابتسامةَ الملائكيَّةَ التى ارْتسمتْ على شفتيه، وذاك النور المتلألئ المشعَ منْ وجهه الطاهر. وشيَّعَ جنازتَه عشراتُ الألوف منْ معارفه ومُحبِّيه وتلامذته، ودُفنَ عصرَ يوْم جُمعةٍ فى العشْر الأواخر منْ شهْر رمضانَ المعظَّم.

ولمْ يتمكنْ صلاح منْ ضبط انفعالاته الجياشة وتأثره منْ تلك الكلمات. وترقرقت الدموعُ فى عينيه. واعتقد أنّ اللهَ سبحانهُ وتعالى جعلهُ سببًا فى توبة وصلاح أستاذه وفى حُسن ختام حياته، وخرجتْ منْ فمه صيحةٌ لم يتحكمْ فيها وصاح:

- اللهُ أكبرُ .. اللهُ أكبرُ، الحمدُ لله .. الحمدُ للَّه .. عودٌ حميدٌ يا أستاذى عودٌ حميدٌ،

أبشرى أيتها السيدةُ الفاضلة، فإنّ أستاذنا الكبيرَ رحمهُ اللهُ قدْ وفّقهُ العلىُّ القديرُ إلى حُسنِ الختام، وأظنّهُ الآنَ بإذن الله فى روضة من رياض الجنّة.

وفى هذه اللحظة المشحونة بالانفعالات والذكريات المؤثرة، صاحتْ أرملةُ الدكتور شكرى لأنها تذكرتْ شيئًا مهمًا وقالتْ: - لقدْ تذكرتُ شيئًا مهمًا الآنَ، لقدْ تركَ لك أستاذك شكرى غانم رسالةً وأوْصانى عندما أراك يومًا ما بإعطائك إياها، وكانَ ذلك قبل وفاته بأكثرَ منْ سنة.

ودُهش صلاحٌ منْ كلمات السَّيدة وقال:

- أُستاذى الكبيرُ الدكتورُ شُكرى ترك لى رسالةً خصيصاً. أين هى؟

- موجُودةٌ فى وسط الأوراق المهمَّة داخل حقيبته التى كان يحملُها.

وقامت الأُرملةُ وأحضرتْ خطابًا مُغلقًا من النَّوع المتوسِّط، ومكتوبٌ عليه بخطٍّ كبيرٍ وواضح: لا يسلَّمُ إلا ليدِ ابننا العزيز الغالى/ صلاح غريب الجندى.

وأخذ صلاح الرِّسالةَ فى لهْفَةٍ واشْتياقٍ، واستأذنَ أرملةَ أستاذه، وخرجَ إلَى الطَّريق وسارَ قليلاً على شاطئ النيل الخالدِ، حتَّى وجدَ مقْعداً خشبيًا فى مكانٍ هادئٍ، فجلسَ عليه وأخرجَ رسالةَ أستاذهِ وبدأَ يقرأُ ما فيها:

ابننَا العزيزُ الغالى صلاح..

تحيةً طيبةً مباركةً من عند اللهِ، ودعاءً منَ القلبِ أنْ يحفظك العلىُّ القديرُ أنتَ وأسرتَك، وتمنياتى أنْ تعودَ إلَى بلدكَ الحبيبِ مصرَ بعدَ غُربةِ تلكَ السنواتِ الطَّويلةِ.

ابنى الحبيب:

قد تصلك رسالتى هذه بعد أن أكون قد رحلت عن الدنيا. فأرجو ألا تنسانى من الدعوات الصالحة. وإننى فى كل يوم وليلة أدعو لك. فجزاك الله عنى كل خير يا صلاح، فالرسالة التى وصلتنى عقب سفرك إلى الخارج - والتى اعتقدت تماما أنها منك.. قد غيرت مجرى حياتى بالكامل، وجعلتنى أنظر إلى الدنيا بمنظار آخر كان غائبا عنى، نظرت إليها وكأننى عابر سبيل، كما قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم:

«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

هذا المعنى لم أكن منتبها له من قبل أن تصلنى رسالتك. لقد ابتلانى الله تعالى - كما قلت - بنعمه الكثيرة، ولم أقابل تلك النعم بحمده عز وجل باللسان، ولا بشكره جل وعلا بالعمل الصالح، بل قابلت هذه النعم بالجحود والنسيان والاستغراق فى ملذات الدنيا وضعف الإيمان. إننى كنت كالغافل الذى استيقظ، وكالأعمى الذى أبصر، وكالضال الذى اهتدى، وامتلأ قلبى - والحمد لله - بالإيمان الراسخ بعد أن كان خاويا لا يهتز إلا لشهوات الحياة الفانية.

ابنى الغالى:

إن الإيمان بالله يبعث فى القلب الخشية والتقوى التى تؤهله لطاعة الله فيما يأمره به وفيما ينهاه عنه، لقد أدركت - بعد رسالتك - بأن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف ولا قمة الأمل، بل إن هناك بعثا ونشورا وحسابا وجزاء نعيما أو عذابا. فتغيرت موازين الحياة أمامى، فلم يعد المتاع الحسى هو غاية الحياة، كما فى قوله تعالى:

﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢)﴾ (محمد).

وهذا ما كنتُ أعيشُهُ من قبلُ، فهذا متاعٌ زائلٌ، وإنَّما المتاعُ الحقيقيُّ هُوَ في الإيمانِ باللهِ والإخلاص في طاعته، والتقرُّب إليه، هذه هِيَ التِّجارَةُ الرَّابحةُ، ولقدْ نبَّهتَني أنتَ منْ غفلتي على هذه الحقيقةِ الرَّائعة، وعُدتُ إلى رَبِّي والحمدُ للهِ، وأصبحتُ منَ الذينَ آمنُوا بعد أنْ كُنتُ من الذينَ كفرُوا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ (النساء).

فإلى اللِّقاءِ في جنَّةِ الخلدِ بإذنِ اللهِ تعالى يا بُنيَّ العزيزُ، وجزاكَ اللهُ عنِّي كُلَّ خيْرٍ.

والسَّلامُ عليْكُمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ.

والدُك

محمد شكرى غانم

وانهمرتِ الدُّموعُ منْ عينيْ صلاحٍ بغزارةٍ، وبكى كما لمْ يبكِ منْ قبلُ، وكانتْ تلكَ الدُّموعُ هيَ دُموعُ التَّوبةِ والندمِ والاستغفارِ لربِّ العالمينَ. وقارنَ بينَ حياتهِ الأُولى وحياتهِ الأخيرةَ، فهَا هُوَ بعْدَ أنْ كانَ مُؤْمنًا قويَّ الإيمانِ، مُلتزمًا بسُلوكيَّاتِ دينِه، سائرًا على الطَّريقِ الصَّحيحِ فإذا بهِ يُبتلَى بالنِّعَم، فيصبحُ عالمًا في تخصُّصه يُشارُ إليهِ بالبنانِ، عندهُ

من الأموال ما جعلهُ ينضمُ إلى فئة الأغنياء والأثرياء. لديه الصحة والعافية والزوجة والابنة، يعيشُ فى قصرٍ فاخرٍ. فماذا فعلتْ به كلُ هذه النعم؟ جعلتهُ يضلُ عن الطريق الصحيح، وينسى طاعة ربه، وتقطعتْ به السُبلُ، فلا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حجَ بلْ ولا صلة رحم.

وقام صلاحٌ منْ مكانه وقد اتخذ قرارًا مُهمًا، وهُو الرُجوعُ إلى ربه - مثل أستاذه - والتوبةُ والندمُ والاستغفارُ، والتمسُكُ بدينه وبأهله وببلده.

وعادَ إلى «برديس» فوجدَ زوجتهُ وابنتهُ قدْ ضاقتا بهذه

الحياة الريفية المتواضعة. فأخبر زوجته بقراره الذى اتخذه ولن يحيد عنه. وهو البقاء فى مصر وعدم العودة إلى أمريكا، ودهشت زوجته من هذا القرار السريع. وأفهمته أنها لن تستطيع أن تعيش هذه العيشة البدائية بعيداً عن بلدها وأهلها. فخيرها زوجها بين العيش معه فى مصر أو الانفصال. فاختارت الخيار الثانى.. ولكنها اشترطت أن تأخذ ابنتهما «مارى» معها، فوافق صلاح على ذلك - رغم صعوبة القرار - وكان وداعاً حاراً ممزوجاً بالدموع فى مطار القاهرة وهو يودع زوجته وابنته.

وعاد صلاح إلى طريق الإيمان والالتزام. وتاب إلى الله توبة نصوحاً، وحج بيته العتيق وزار مسجد رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. وانضم أستاذاً إلى مركز البحوث الزراعية بجامعة القاهرة، وأخذ مكان أستاذه السابق الدكتور محمد شكرى غانم. وكان يترحم عليه فى كل يوم. ويرفع يده إلى السماء داعياً:

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨)﴾ (آل عمران)

صدق الله العظيم.

اللهم قو إيمانى...